وهكذا نرى أن علوما مختلفة أصبحت تتصل بـ « علم الاجرام Criminology» أو تتفرع عنه ، وهى : « علم الأمراض العقلية الاجرامى Mental Criminology » و « علم طبائع الانسان الاجرامى Criminal Antropology » و « علم النفس الجنائى Criminal Psychology» و « علم النفس الاجتماعى Social Psychology » و «علم الاجتماع الجنائى Criminal Sociology » ، و « علم العقاب Penology » •

ان هذه العلوم ليست وليدة العصور القديمة ، وانما هى علوم حديثة ، تتعاون معا فى الوصول الى كشف عوامل الجريمة واستخلاص طرق مكافحتها والوقاية منها •

ولذلك فالنظريات القديمة التى قامت على أساس فلسفى لكشف أعماق النفس ومعرفة عوامل السلوك لم تكن تعرف هذا التصنيف لعلوم الجريمة •

اننا سنتكلم بايجاز عن العوامل المؤدية الى الجريمة فى مبحثين ، أولهما عن الأفكار الفلسفية بشأن عوامل الجريمة ، وثانيهما عن الأفكار العلمية بهذا الشأن •

* * *

المبحث الأول

الأفكار الفلسفية بشأن عوامل الجريمة

٦ — ليس الكلام فى ذلك الا اشارة فقط لمثل هذه الأفكار دون التدخل فى تفصيلاتها ، ونعنى بها الأفكار التى قامت على أساس فلسفى سواء فى بلاد الغرب أو فى الشريعة الاسلامية •

● أولا — فى بلاد الغرب :

٧ — كان بلاتون — الفيلسوف الاغريقى — فى القرن الرابع قبل الميلاد ، يرى أن الاجرام هو وليد مرض نفسى ، أى أن المجرم هو

شخص يجوز علاجه اذا كان ذلك مستطاعا ، والا فان المصلحة العـامة تستلزم بتره من المجتمع •

أما ابيوقراط ــ فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فكان يرى أن الاجرام هو وليد نقصان فى العقل ، أى أنه كان يربط بين السـلوك الاجرامى وبين النقصان فى العقل •

وكان لسقراط وأفلاطون وأرسطو آراء لا تختلف الا قليلا فى شأن المجرمين ، فهم يرون أن المجرمين مسوقون الى الجريمة نتيجة عوامل نفسية داخلية تعبر عنها سمات خلقية معيبة فى جسم الانسان ، وكان من رأى أفلاطون أن هذه العيوب بما يتولد عنها من آثار نفسية لها تأثير على ارادة الانسان ، غير أن الجزاء الجنائى له ما يبرره بصرف النظـر عن حرية هذه الارادة •

وفى القرن السادس عشر الميلادى ظهر ديلا بورتا Della Porta بنظرية سادت العصور الوسطى مدة طويلة من الزمان مؤداها أن الصفات الجسدية تعبر عن شخصية الفرد وطباعه وميوله السلوكية ، وعقد فى ذلك المقارنات بين علامات اليدين والأرجل والسرة والجبهة والأنف والعين وغيرها وبين أنواع معينة من السلوك ، وكان يؤيد ديلا بورتا فى ذلك فلاسفة طبيعيون مثل ديلا شامبر Della Chambre وداروين (١) •

واستمرت أفكار الفلاسفة تدور فى مثل هذا الفلك حتى القـرن التاسع عشر حيث ظهرت النظريات العلمية عن عوامل الجريمة كما سيأتى •

٨ ــ ويستفاد من هذه الأفكار أن عوامل الجريمة فى نظر فلاسفة الغرب الأقدمين انما كانت ترجع الى سـمات خلقية معيبة ، أو عيوب نفسية أو نقصان عقلى •

---

(١) راجع فى ذلك :

١ ــ رمسيس بهنام ، علم الاجرام ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ ، ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ .

٢ ــ J. J. Lorri, L'homme criminal, Paris, 1933, p. 29 et suiv.

ونلاحظ أن أحدا من هؤلاء الفلاسفة لم يتعرض لتأثير البيئة على الانسان ، فلم تكن الظروف الاجتماعية تحتل مكانا لانتباههم •

* * *

● **ثانيا — فى الشريعة الاسلامية :**

٩ — حينما نرجع الى الشريعة الاسلامية ، نجد أنها لم تغفل النظر الى الذات البشرية ، بل انها تعهدتها بالبحث الدقيق والاختبار الشامل ، وكان أن ظهر فى المجتمع الاسلامى مذهبا الجبرية والقـدرية وطال الخلاف بينهما ، بل ان ما تولد عنهما من أفكار تتعلق بالمسئولية والارادة لم يزل حتى الآن يشكل موضوعاً من موضوعات الجدل لم تستطع حتى العلوم الحديثة أن تحسمه أو تقطع فيه برأى دقيق •

ولم تكتف الشريعة الاسلامية بالنظر الى النفس البشرية فى ذاتها ، بل نظرت أيضاً الى عامل الوراثة فى تكوين النفس ، والى تأثير البيئة عليها والى الرابطة بين التكوين العضوى للانسان وبين ميوله أو طباعه النفسـية •

وهكذا تكون الشريعة — وقد مضى على مولدها أربعة عشر قرنا — قد استوعبت كل ما بلغه الفكر البشرى فى دراسة نفس الانسان حتى الآن ، فقد تصدت لعقل الانسـان باعتباره مركز الادراك فيه ، ولقلبه باعتباره مركز الغرائز والعاطفة ، وأفصحت عن وقوع النفس البشرية بين عاملى الخير والشر ، باعتبارهما عاملين فطريين يعيشان فى كل نفس ، ولا تترجح كفة أحدهما على الآخر الا بتأثير القيم الفطرية أو المكتسبة فى العقـل •

وانتقلت الشريعة بعد ذلك الى الوسط الاجتماعى ، تتحدث عن تأثيره على النفس البشرية ، وتضع النظام الذى يكفل طهارة هذا الوسط لتتطهر بالتالى النفس التى تعيش فيه •

وسنوجز فيما يلى اتجاهات الشريعة الاسلامية فى ذلك :

(ا) نظرة الشريعة الى النفس البشرية •

١٠ ــ لقد عبر الله تعالى عن النفس البشرية أحسن تعبير حينما قال : **« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هــذه الشــجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنهــا فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »**[٢] •

وهكذا بدأ الانســان الأول بالمعصية ، تحت اغراء الشيطان ، على الرغم مما حذره به ربه من مغبة عصــيان أمره ، اذ قال تعــالى له : **« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى • ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى • وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى »**[٣] •

لقد أتيحت لآدم ــ كأمر ربه ــ كل أسباب الرفاهية والعيش الرغيد ، ولكن نفسه الشهوانية ظلت تطلب المزيد ، فما كاد الشيطان يوسوس لها حتى استمعت اليه وأقدمت على عرض زائل ، ما أغناها عنه **« فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »**[٤] ، **« ما نهاكما ربكما عن هــذه الشــجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين »**[٥] •

وهكذا عصى آدم ربه فغوى[٦] ، وكانت هذه هى بداية غواية ابليس للانســان وبداية عصيان أمر ربه ، اذ كان من نتيجة هــذا العصيان من جانب آدم أن قضى الله تعالى بنزولهما من الجنة الى الأرض حيث يصبح بعضهم لبعض عدوا[٧] وتتوافر هــذه العداوة بين الناس بما جبلوا عليه من الحسد والبغضاء والتنافس والتعالى والكيد والتصارع والتناحر •

١١ ــ وكان طبيعياً أن الشيطان الذى عادى الانسان فى الجنة ، يصبح أشد عداوة له فى الدنيا : **« قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك**

---

(٢) البقرة : ٣٥ ، ٣٦ • (٣) طه : ١١٧ ــ ١١٩ •
(٤) طه : ١٢٠ • (٥) الأعراف ٢٠ •
(٦) **« فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه ففوى »** (طه : ١٢١) •
(٧) **« وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ••••»** (البقرة : ٣٦) •

المستقيم • ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين »[٨] •

اننا نرى الشيطان يقسم « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين • الا عبادك منهم المخلصين** »[٩] •

وكثيراً ما يفلح الشيطان فى غواية الناس ويسيطر على عقولهم فيدفعهم الى الشر ويكون فى مكنتهم أن يدفعوه ، غير أن ارادة الله انما تريد أن يمتحن عباده ليعلم أيهم أحسن عملا[١٠] •

وهكذا أصبح من الناس من هم من حزب الشيطان ، ، واستطاع الشيطان أن يضلهم عن الطريق المستقيم وأن يجعل حياتهم خسراناً فى الدنيا والآخرة[١١] •

١٢ — لقد التزم الشيطان أموراً سبعة فى العداوة ، أربعة منها فى قوله تعالى : « **ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ••• »**[١٢] ، وثلاثة منها فى قوله تعالى : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم • ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين »**[١٣] •

ولا تقتصر غواية الشيطان للانسان على نوع معين من المعاصى ، ولكنها تمتد لكل المعاصى سواء من أفعال الجوارح أو أفعال القلوب ، فهو الذى يدفع الناس أحياناً الى ارتكاب المعاصى بالأفعال الظاهرة ، أو يدفعهم اليها بالأفعال الباطنة أى بمجرد القصد والنية ، ولذلك

---

(٨) الأعراف : ١٦ ، ١٧ • (٩) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ •

(١٠) « **ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقاً من المؤمنين • وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك** » — (سبأ : ٢٠ ، ٢١) •

(١١) « **أولئك حزب الشيطان ، الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون** » (المجادلة : ١٩) •

(١٢) النساء : ١١٩ • (١٣) الأعراف : ١٦ ، ١٧ •

يقول تعالى : « **انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** »(١٤) .

١٣ — والمفهوم أن أوامر الشيطان أو وسوسته انما تدرك الانسان فى صورة خواطر تناديه من باطنه أو فى صورة وجدانات تتحرك فى قلبه ، ويجد نفسه فى حاجة الى أن يلبى دعوتها الى المعاصى .

والخواطر اما ادراكات طارئة أو عارضة تنزل بالنفس للمرة الأولى ، أو ادراكات متجددة باقية ، والخواطر هى المحركات للارادات ، فالخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك الارادة ، والارادة تحرك الأعضاء(١٥) .

والخواطر حادثة ، وكل حادثة لابد لها من محدث ، واختلاف الحوادث يدل على اختلاف الأسباب ، وسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا(١٦) .

ويضيف الغزالى ، أن اللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الالهام يسمى توفيقا ، والذى يتهيأ به لقبول الوسوسة يسمى اغواء أو خذلانا(١٧) .

والملك هو خلق خلقه الله من شأنه افاضة الخير ، وافادة العلم ، وكشف الحق والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه الله وسخره لذلك .

---

(١٤) البقرة : ١٦٩ — فالسوء جميع المعاصى ، والفحشاء أقبح أنواع السوء ، والتقول على الله بغير الحق أقبح أنواع الفحشاء — راجع الفخر الرازى ج ٥ ص ٤ ، ٥ .

(١٥) وذلك ما يعبر عنه فى علم النفس بالتلبيات النوعية Specific response .

(١٦) والى ذلك يشير تعالى بقوله : « **ومن كل شيء خلقنا زوجين** » ، (الذاريات : ٤٩) ، والزوجان هنا هما الملك والشيطان ، أو الخير والشر .

(١٧) وهكذا يكون اللطف هو الاستعداد الكائن فى النفس لقبول الخير أو الشر ، وهذا ما يعبر عنه فى علم الاجرام بالنسبة للشر بالاستعداد الاجرامى .

والشيطان هو خلق شـــأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ، والتخويف بالفقر •

١٤ — وعلى ذلك فالنفس شقان ، أحدهما موطن الخير ، والآخر موطن الشر ، ويتجاذب هذان الموطنان الانســـان ، كل من ناحيته ، والانســـان بما فيه من قوة العقل والايمان ، قادر على أن يفاضل بينهما ، وهى قوة لا تتعادل بين جميع الناس بقدر واحد •

يقول ﷺ « فى القلب لمتان [١٨] ، لمة من الملك ، ايعاذ بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ، ولمة من العدو ايعاذ بالشر وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلـــك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم »[١٩] •

وهكذا ينادى النبى ﷺ عقل الانســـان حين تنزل به هواتف الشر ليواجهها بالاستعاذة بالله من الشيطان •

١٥ — وقبول النفس لعامل الخير أو الشر .. و أمر فطرى محض ، فهى مجبولة بطبيعتها على هـــذا الاستعداد الثنائى ، للأســـباب التى سقناها ، ولذلك يقول عليه السلام « ما منكم من أحد الا وله شيطان » قالوا : وأنت يا رســـول الله ؟ قال « وأنا .. الا أن الله أعاننى عليـــه فأسلم فلا يأمر الا بالخير »[٢٠] •

وقال عليه السلام « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع »[٢١] وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة •

واذن ، فكل نفس محملة بعاملين ، عامل غريزى محض ، وعامل روحانى محض ، فالأول يعبر عن الغريزة ، وهى الدافعة الى الشر ، والثانى يعبر عن العقل وهو الدافع الى الخير •

---

(١٨) اللمة بتشديد الميم هى الخطوة أو الاقتراب .

(١٩) حديث ابن مسعود .

(٢٠) من حديث ابن مسعود .

(٢١) حديث أنس رواه مسلم .

يقول الفخر الرازى : ان الله خلق الملائكة عقولا بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوات بلا عقل ، وخلق الآدمى فجمع فيه الأمرين معا[٢٢] .

ويضيف الفخر الرازى : فاذا غلب هواه عقله صار كالبهيمة ، وهو من قال تعالى فى مثله : « **أولئك كالأنعام بل هم أضل** »[٢٣] .

والغريزة حين تعتل فى النفس البشرية تصبح مرضا فيها ، بل هذا أشد أنواع المرض ، لأن الوصول الى تشخيصه جد عسير ، ويعبر تعالى عن القلوب التى اعتلت غرائزها بقـوله « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** »[٢٤] .

١٦ — واذا قلنا ان عاملى الخير والشر فطريان فى الانسـان ، فمعنى ذلك أن الانسـان يولد بهما ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يمتنع عليه اكتسابهما أو اكتساب أيهما أثناء الحياة ، فالانسـان بجانب الصـفات النفسية الموروثة يكتسب صفات أخرى بحكم وجوده فى المجتمع .

يقول ﷺ : « اذا ولد المولود لبنى آدم قرن ابليس به شيطانا ، وقرن الله به ملكا . فالشيطان جاثم على أذن قلبه الأيسر ، والملك جاثم على أذن قلبه الأيمن ، فهما يدعوانه » .

ومن الصوفية والفلاسفة من فسر الملك الداعى الى الخير بالقوة العقلية وفسر الشيطان الداعى الى الشر بالقوة الشهوانية أو الغضبية[٢٥] .

---

(٢٢) الفخر الرازى جـ ٥ ص ٥ .

(٢٣) « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون** » — (الأعراف : ١٧٩) .

سئل النبى صلى الله عليه وسلم : ما العلم ؟ قال : دليل العمل ، قيل : فما العقل ؟ قال : قائد الخير ، قيل : فما الهوى ؟ قال : مركب المعاصى . . (راجع فى ذلك الفخر الرازى) جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٢٤) البقرة : ١٠ — والمرض صفة توجب وقوع الضرر فى الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة — الفخر الرازى جـ ٢ ص ٧٤ .

(٢٥) راجع الفخر الرازى جـ ٥ ص ٥ .

ويؤيد هـذا الحديث ما جاء فى حديث آخر للنبى ﷺ سبق أن ذكرناه ، وهو أن « للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة » ، وما جاء فى قوله تعـالى : **« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها »**(٢٦) .

ثم يؤكد الله تعالى خلق الغرائز الشهوانية فى الانسـان منذ مولده بقوله تعـالى **« زين للناس حب الشهوات من النسـاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المـآب »**(٢٧) .

أى أنه تعالى قد خلق الشهوات الجسمانية والنفسية ، ومن ذلك غريزة التملك أو الاقتناء ، والغرائز الجنسية ، والغريزة العائلية ، وغريزة الاعتداد بالذات ، وهى الغريزة التى تتكلم عنهـا المدرسة النفسـية الحـديثة(٢٨) .

يقول الفخر الرازى فى هذه الآية : وظاهر اللفظ أن هذه الشهوات حاصلة لجميع الناس ، واللذة قسمان ، جسمانى وروحانى ، فالأول حاصل لكل أحد والثانى حاصل للقيل النادر ، فالانسان لا يشعر باللذة الروحية الا بعد الاستئناس باللذة الجسمانية ، فكأن اللذة الجسمانية هى المستقرة الأصلية ، واللذة الروحانية طارئة قد تزول ، ولذلك فالغالب على الخلق هو اللذات الجسمانية ، ولولا حب الزوجة والولد فى قلب الانسـان

---

(٢٦) الشمس : ٧ ، ٨ • (٢٧) آل عمران : ١٤ .

(٢٨) يقول الغزالى : أربع شوائب — أى غرائز — تجتمع على القلب ، وهى الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والربانية ، فالأولى من أفعال السباع ، وهى العداوة والبغضاء ، والتهجم ، والضرب . . الخ ، والثانية شهوانية كالبهائم ، وهى الشر ، والحرص والشبق ، والثالثة شرير يستعمل الحيلة وادهاء فى الشر ويظهر الشر فى معرض الخير ، والرابعـة يدعى الربوبية كالاستعلاء ، والاستبداد ، والتفرد بالرياسة ، والتعالى ، والاستطلاع وادعاء العلم والمعرفة . ويضيف الغزالى أن كل انسان به شىء من ذلك .

وما يشير اليه الغزالى يشتمل على غرائز الهجوم والاقتناء والاعتداد بالذات والاستطلاع والغريزة الجنسية ... الخ .

ما حصل التوالد والتناسل ، ولذلك فهذه غريزة حاصلة لدى الحيوانات ، والحكمة منها بقاء النسل[٢٩] .

وهكذا تعرض الفخر الرازى لغريزة حفظ النوع ، تلك الغريزة التى يفصح عنها قوله تعالى : « **خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** »[٣٠] فالذى يجذب الرجل الى المرأة هو الشهوة الجنسية أو الحب الشهوانى ، والذى يجعل الرجل يسكن الى زوجته هو الحب المعنوى ، والذى يربط الرجل بأولاده هو الحب العائلى ، وهذه الوجدانات جميعا تنطوى على غريزة حفظ النوع والغريزة الجنسية .

١٧ — تلك هى الغرائز التى يولد بها الانسان ، ولكن على الانسان فى حياته أن يكتسب القيم التى تحكم هذه الغرائز ، فلا يطلق لها العنان الى حيث تؤدى به الى التهلكة ، وعلى الانسان أن يسمع الى نداء الجانب المدرك فى النفس وهو العقل ، فهو الذى يوفق بين حاجات الغرائز ومتطلبات البيئة ، ويهدى الانسان الى حماية ذاته وحماية المجتمع فى ذات الوقت .

ولذلك يخاطب الله تعالى الجانب المدرك فى النفس البشرية ويحذره من مغبة استرسال الجانب الشهوانى فى المعصية والاثم فيقول تعالى : « **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم** »[٣١] ويقول تعالى أيضاً : « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** »[٣٢] . وقال : « **ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين** »[٣٣] ، وقال أيضاً : « **ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون** »[٣٤] .

---

(٢٩) الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢١٠ . (٣٠) الروم : ٢١ .

(٣١) البقرة : ٢٦٨ — وهكذا يعبر تعالى عن النفس الامارة بالسوء بالشيطان .

(٣٢) فاطر : ٦ . (٣٣) يس : ٦٠ .

(٣٤) الأعراف : ٢٠١ .

وبعد أن قال تعالى « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ...** »[٣٥] الخ ، أضاف تعالى : « **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** »[٣٦] .

ومقتضى ذلك أن الانسان مطالب بأن يستمع الى نداء الجانب المدرك فى النفس حتى لا يطغى الجانب الغريزى أو الشهوانى عليها فيقودها الى سوء السبيل . والخواطر التى تتنازع الانسان بين الخير والشر انما يرسيها فى الانسان الملك أو الشيطان[٣٧] ، فهما قادران على توصيلها الى أقصى الدماغ ، والى أقصى القلب ، أى الى بواطن الشر[٣٨] ، ومما يدل على اثبات الهام الملائكة بالخير قوله تعالى : « **اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** »[٣٩] ، أى ألهموهم الثبات وشجعوهم على أعدائهم .

ذلك هو تصوير الشريعة الاسلامية للنفس البشرية ، بما انطوت عليه من جانب شهوانى وجانب رادع ، وبما اشتمل عليه الجانب الشهوانى من غرائز فطرية ، وبما تطالب به هذه النفس من أن تجهد فى مقاومة هذه الغرائز وأن توافق بين نوازعها ومستلزمات المجتمع الذى تعيش فيه .

* * *

● **مراتب النفس :**

١٨ — هنالك كلمات أربع لم يستطع علماء المسلمين أن يحددوا مضمون كل منها بحيث تستقل عن الأخرى بمفهوم متميز ، وهذه الكلمات هى : القلب ، والروح ، والنفس ، والعقل .

فلفظ « القلب » ، قد يعنى عضلة القلب ذاتها ، وقد يعنى اللطيفة الربانية الروحانية وهى حقيقة الانسان ، وقد يكون هو المدرك العالم

---

(٣٥) آل عمران : ١٤ . (٣٦) آل عمران : ١٥ .
(٣٧) والملك هو النفس الروحانية ، والشيطان هو النفس الشهوانية .
(٣٨) الفخر الرازى ج ٥ ص ٥ . (٣٩) الأنفال : ١٢ .

العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب ، وله علاقة مع القلب الجسمانى .

ولفظ « الروح » ، قد يراد بها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، وقد يعنى بها اللطيفة العالمة المدركة من الانسان ، وهى التى أرادها الله بقوله « **قل الروح من أمر ربى** »[٤٠] .

ولفظ « النفس » ، قد يعنى بها المعنى الجامع لقوة الغضب[٤١] والشهوة فى الانسان ، وهذا المعنى هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، واليه أشار النبى ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »[٤٢] ، والنفس بهذه الصورة لا يتصور رجوعها الى الله تعالى ، فانها مبعدة عنه ، وهى من حزب الشيطان .

وقد يعنى بالنفس اللطيفة التى هى الانسان بالحقيقة ، وهى نفس الانسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فاذا سكنت وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، سميت النفس المطمئنة ، ويقول تعالى فى مثلها « **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية** »[٤٣] .

واذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها ، سميت النفس اللوامة ، ويقول تعالى فى مثلها « **ولا أقسم بالنفس اللوامة** »[٤٤] .

واذا تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت الشهوات ، سميت بالنفس الأمارة بالسوء ، ويقول تعالى فى مثلها اخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز « **وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء** »[٤٥] .

---

(٤٠) الاسراء : ٨٥ .
(٤١) المراد بالغضب هو الانفعال .
(٤٢) من حديث ابن عباس .
(٤٣) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .
(٤٤) القيامة : ٢ .
(٤٥) يوسف : ٥٣ .

ولفظ العقل ، قد يراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ، وقد يراد به المدرك للعلوم ، أو محل الادراك ، وهو المراد بقوله ﷺ : « أول ما خلق الله العقل » ، وذلك لأن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق(٤٦) .

ويتضح من ذلك بجلاء أن فقهاء المسلمين قد صنفوا النفس ثلاث مراتب ، كما يصنفها تماما علم النفس الحديث بناء على تصنيف فرويد ، وهى النفس الشهوانية والنفس الشعورية ، والنفس المثالية(٤٧) .

* * *

● **العملية الغريزية :**

١٩ — يقرر علماء النفس أن سلوك الفرد ما هو الا نتيجة لانفعال أو وجدان أو تأثر معين تولد فى النفس نتيجة لادراك أمر من الأمور حسيا كان أم معنويا ، فالدافع على السلوك يبدأ أولا بمعرفة أو ادراك أمر ، ثم يتلو ذلك تأثر بهذا الادراك أو المعرفة ، ثم يعقب ذلك رغبة أو نزوع الى هـذا السلوك ، فالعملية الغريزية أو الاجراء الغريزى يتكون من ثلاثة عناصر أو مراحل أو خطوات هى : الادراك والانفعال والنزوع ، وهى ما يسمونها بالتقلبيات النوعية .

وسنرى أن المسلمين قد وصلوا الى كشف هـذه الأمور الثلاثة بنفس الترتيب .

فهم يقولون ان لله فى النفس نوعين من الجنود(٤٨) ، جند يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر ، والقلب كالملك ، والجنود كالخدم ، فأما الجند المشاهد بالعين ، فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسـان

---

(٤٦) راجع فى ذلك : احياء علوم الدين للغزالى ج ٨ ص ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٤٧) وبعبارة أخرى : الأنا الدنيا ، والأنا الوسطى ، والأنا العليا .

(٤٨) « **وما يعلم جنود ربك الا هو** » (المدثر : ٣١) .

وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، وأما الجند غير المشاهد بالعين ، فهو قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهى مبثوثة فى أعضاء معينة من الجسم . ويعبر عنها بالعلم أو الادراك .

وبجانب هذين النوعين من الجنود صنفان آخران[٤٩] ، صنف باعث ومستحث ، اما الى جلب المنافع الموافقة للشهوة ، واما الى دفع المضار المنافية للغضب ، وقد يعبر عن هـذا الباعث بالارادة ، وصنف ثان هو المحرك للأعضاء الى تحصيل المقاصد ، ويعبر عن هـذا الصنف بالقدرة وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء .

ومعنى ذلك أن هنالك أعضـاء تستطيع الادراك والمعرفة ، فاذا ما عرفت شـيئاً أو أدركته انفعلت به أعضـاء أخرى غريزية ، تدرك النافع والضار ، فتنبعث منها ارادة تحرك الأعضاء التى تحقق ما تنشده النفس ، اما بالحصول على منفعة أو الهروب من ضرر ، وبمعنى آخر فان العملية الغريزية تتكون من أدراك ثم رغبة وارادة فى تحريك الأعضاء المختصة فى الجسم لجلب المنافع أو تجنب المضار .

والقلب بهذه الجنود يهدف الى حفظ الجسد ، عن طريق جلب ما يوافقه من الغذاء وغيره ودفع ما ينافيه من أسباب الهلاك ، وهكذا خلقت فى النفس الشهوات التى تحتاج اليها فى استمرار الحياة ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات وبها يحفظ الانسان ذاته ، وخلق الغضب « أى الانفعال » الذى يدفع المهلكات ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الغضب ، وبها يتقى الانسان الضرر .

ومع كل واحد من الجنود الباطنة جنود ظاهرة ، وهى الأعضاء المركبة فى الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه

---

(٤٩) وكثيرا ما كان الأمر يقتصر على ثلاثة أنواع من الجنود بالنسبة للعملية الغريزية كلها فنوع يدرك ، ونوع ثان ينفعل ويريد ، ونوع ثالث ينزع ويتحرك .

الجنود ، فان قوة البطش انما هى فى الأصابع ، وقوة البصر انما هى فى العين[٥٠] .

* * *

● **تكوين الارادة :**

٢٠ — يرى علماء المسلمين أن الحيوان مركب به شهوة « أى غريزة » وغضب « أى انفعال » وحواس ظاهرة وباطنة ، فالجهاز الغريزى فى الحيوان كما هو فى الانسان ، ولذلك اذا رأت الشاة الذئب خافت فهربت ، وهو اجراء غريزى محض فى الحيوان ، أما الانسان فيتميز عن الحيوان بالعقل أى بالادراك ، ولذلك فالارادة من خصائص الانسان لا الحيوان لأنها وليدة العامل الغريزى والعامل العقلى كليهما معا ، أو بمعنى آخر هى وليدة الادراك العقلى للزواجر والنواهى .

والارادة على هذه الصورة هى الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل ، ويكون الانسان قد اختص بعلم وارادة ، يتميز بهما عن الحيوان ، بل عن الصبى فى أول الفطرة ، اذ لا يكون لديه الا الشهوة والغضب ، والحواس الظاهرة والباطنة لخدمة الشهوة والغضب ، وهى ضرورية له قبل بلوغ العقل ، ثم يضيف اليها مع نموه ونمو عقله العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر ، ويختزنها عنده للرجوع اليها ، ولهذا الاكتساب مراتب فمنه السريع ومنه البطىء ، وله وسائله اما بالتجربة أو العلم[٥١] ، وعلى أساس ارادة الطفل تنشأ مسئوليته .

* * *

---

(٥٠) راجع فى ذلك : احياء علوم الدين ج ٨ ص ١١ — ١٣ ويلاحظ أن علماء المسلمين لم يغفلوا حتى الاشارة الى الخيوط التى تربط بين مراكز الادراك أو الحس وبين مراكز الغريزة من جهة ، والتى تربط بين مراكز الغريزة وبين أعضاء الحركة من جهة أخرى ، وسنشير الى ذلك فيما بعد .

(٥١) راجع : احياء علوم الدين . ج ٨ ص ١٦ .

● **اكتساب النفوس للهداية :**

٢١ — ومن القلوب من يسهل تفتحه للحقائق والهداية ، ومنها ما يصعب ، ولذلك يقول ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء »(٥٢) .

قال كعب الأحبار : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : الانسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ، ورجلاه بريد ، والقلب منه ملك ، فاذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول(٥٣) .

وبالعلم والتربيـــة وترويض النفس يمكن تعويدها على مجاهدة الشيطان ، ومن يستطع قهر الشيطان يصدق فيه قوله ﷺ : « من كان له فى قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ » .

ان مثل هـــذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر ، يقول تعالى : **« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »**(٥٤) .

ان البدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو خاصية الانسان ، فالانسان مرتبة بين البهائم والملائكة ، فهو من حيث ينسل ويتغذى نبات ، ومن حيث يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث صورته فصورة منقوشة على الحائط ، وانما خاصيته معرفة الحقائق ، فمن استعان بالعلم على ذلك وبالعمل فقد تشبه بالملائكة .

وهنالك أسباب تحول دون وصول العلم للقلب ، منها :

١ — نقصان القلب « أى النفس » فى ذاته كقلب الصبى .

٢ — تراحم المعاصى وتراكمها على وجه القلب ، ولذا يقول ﷺ : « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبداً »(٥٥) .

---

(٥٢) رواه أحمد من حديث أبى هريرة .

(٥٣) من حديث أبى هريرة .

(٥٤) الرعد : ٢٨ .

(٥٥) لم نستدل على أصل الحديث .

٣ — ضلال القلب لانصرافه الى الحياة عن التأمل فى الربوبية ، فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من آفات الأعمال .

٤ — حجاب القلب : فان المطيع القاهر لشهواته قد لا تنكشف أمامه الحقيقة لكونه محجوبا عنها باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد .

٥ — جهل طرق التحصيل ، فطالب العلم لا يستطيع تحصيله الا بمعرفة العلوم التى تناسبه واتقان الوسيلة المؤدية اليها ، والجهل بتلك الأصول هو المانع من العلم(٥٦) .

ان كل قلب مسالح بالفطرة لمعرفة الحقائق التى ترشده الى الهدى ، ولكن العبارة هى بكيفية تحصيل هذه الحقائق .

واذا كان الله تعالى هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى ، الا أنه يطالب عباده بمجاهدة الفجور وتغليب التقوى عليه ، اذ يقول تعالى « **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** »(٥٧) .

* * *

● **أثر البيئة :**

٢٢ — سبق أن بينا ما هو المقصود بحجاب القلب ، حين قلنا ان القلب قد يحجب عن الحق أو الهدى باعتقادات باطلة ترسخ فى نفسه نتيجة التقليد والمحاكاة ، ولا شك أن التقليد والمحاكاة انما يكونان باقتباس سلوك الآخرين وأفعالهم بحكم وجود الانسان معهم فى بيئة واحدة .

---

(٥٦) احياء علوم الدين : جـ ٨ ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٥٧) الشمس : ٧ — ١٠ ، وقال تعالى : « **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** » (يونس : ٥٧) .

ولهذا كانوا يقولون ان العلوم التى تحل فى القلب تنقسم الى عقلية وشرعية ، والعقلية اما ضرورية واما مكتسبة ، فالضرورية هى الفطرية أو الغريزية أى التى لا توجد بالتقليد أو السماع ، والمكتسبة هى المستفادة بالتعليم والاستدلال والمحاكاة ، وكلاهما يسمى عقلا(٥٨) .

ويقول ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »(٥٩) .

ويقول الفقيه أبو الليث : من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء : من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها ، ومن جلس مع الفقراء جعل الله له الشكر والرضا بقسمة الله ، ومن جلس مع السلطان زاده الله القسوة والكبر ، ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة ، ومن جلس مع الصبيان ازداد من اللهو والمزاح ، ومن جلس مع الفساق ازداد من الجراءة على الذنوب وتسويف التوبة ، ومن جلس مع الصالحين ازداد رغبة فى الطاعات ، ومن جلس مع العلماء ازداد العلم والورع (٦٠) .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « سائل العلماء ، وخالط الحكماء ، وجالس الكبراء » ، ويقول : « أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه » .

والمعروف أن بعض الناس يقلدون غيرهم بغير وعى أو دليل ، ولذلك يقول تعالى : **« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »**(٦١) .

---

(٥٨) احياء علوم الدين : ج ٨ ص ٢٨ .

يقول على رضى الله عنه :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

(٥٩) حديث أبى هريرة .

(٦٠) راجع الفخر الرازى ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٦١) البقرة : ١٧٠ .

ان الله يأمرهم باتباعه فيقولون : انما نتبع آباءنا وأسلافنا ، فكأنهم يعارضون الدلالة بالتقليد .

والنفس اذا اكتسبت شيئاً بالتكلف أو التصنع أو التقليد انقلب هذا بالعادة طبعا ، ولذلك يقال : « العادة طبيعة خامسة » .

والانسان يكتسب السلوك اما بمحاكاة أو تقليد البيئة التى يعيش فيها فى مجموعها أو بمحاكاة أو تقليد أفرادها من أقربائه أو رفقائه أو أصدقائه ، ولذلك يقول ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »(٦٢) . وكان ﷺ يقول فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب من يقربنى الى حبك »(٦٣) .

وكما ينقل الانسان عن الخليل الصالح ينقل عن الخليل الفاسق ، ولذلك يقول تعالى : **« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »(٦٤) ، « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه »(٦٥) ، « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا »(٦٦) .**

والمعروف أن الفساد يصير بكثرة المشاهدة هينا على الطبع ، وانما الوازع عنه شدة وقعه فى القلب ، فاذا أصبح مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ، وهكذا يكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير أو الشر ، أو مشاهدة هذا أو ذاك ، وبهذه الدقيقة عرف سر قوله ﷺ : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة »(٦٧) .

ولا يتأثر سلوك الانسان بالبيئة الاجتماعية فقط ، ولكن يتأثر أيضا

---

(٦٢) حديث أبو داوود والترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة .

(٦٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس السوء كمثل الكير ان لم يحرقك بشرره علق بك ريحه » ، وقال : « مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك ان لم يهب لك منه تجد ريحه» .

(٦٤) الكهف : ٢٨ . (٦٥) طه : ١٦ . (٦٦) النجم : ٢٩ .

(٦٧) قول سفيان بن عتيبة ، وليس الغرض هو نزول الرحمة ، ولكن نزول سببها ، وهو انبعاث الرغبة فى القلب والاقتداء بالصالحين .

بالبيئة الطبيعية ، أى بعوامل الطبيعة ، فهو فى حياته يتعامل مع البيئة بجانبيها الطبيعية والبشرية ، وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم : الأنفس والآفـــاق .

ان الانسان يعيش ويموت متأثرا بعوامل الطبيعة ، ولهذا يقول تعالى : « **والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم أخراجا** »(٦٨) ، أى أنه يخلق الناس من النطف وهى متولدة من الأغذية المتولدة من النبات، المتولد من الأرض ، فعلاقة الانسان فى تكوينـــه لا تنفصل عن الطبيعة ، اذ هو أحد عناصرها .

وقد أوضح ابن خلدون — فى مقدمته — وهو يدرس الأجناس البشرية — كيف يرتبط سلوك الناس بعوامل الطبيعة ، بحيث يختلف الناس بعضهم عن بعض باختلاف المكان والمناخ والظروف الطبيعيـــة الأخرى ، وكلما تغيرت مثل هذه الظروف تغيرت طباع الناس وطـــرائق سلوكهم فى الحياة (٦٩) .

* * *

● **أثر السمات الخلقية والوراثة :**

٢٣ — اذا صح الحديث : « اطلبوا الخير من حسان الوجوه » فلا يعنى ذلك الا الوجوه ذات الطلاقة والبشر والابتسام ، فصاحبهـــا أقرب من غيره الى تلبية حاجات الناس ، وتستريح نفوسهم فى الالتجاء اليه أكثر مما تستريح مع الآخرين ذوى الوجوه العابسة أو المنقبضة .

واذا صح أن تعابير الوجه قد تكشف عن طوية النفس ، فان هـــذه التعابير هى كآثار للانفعالات والمشاعر النفسية ، ولا علاقة لها بالتكوين الخلقى للأفراد ، فشكل الأذن ، والأنف ، والفك ، والذراع ، والوسط ، وغيرها من الأعضاء هو من التكوين الخلقى ، ولا صلة له اطلاقا بتعابير

---

(٦٨) نوح : ١٧ ، ١٨ .

(٦٩) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٠ وما بعدها .

الوجه التى يستدل الناظر اليها على ما تفصح عنه من حزن وسرور ، أو رضا ونفور ، أو لذة وألم ، أو مرض وصحة ، أو ثورة وهـدوء ، أو أنس ووحشة ، أو كره وحب .

ومن أجل ذلك لم تجعل الشريعة الاسلامية السمات الخلقيـة المعيبة دليلا على الميل أو الاستعداد الاجرامى ، وتأكيدا لهذا قال ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى »[٧٠] .

وقد يقال ان صفة الانسان كعجمى أو أسود لا علاقة لها بالتكوين الخلقى المعيب ، وهنا نعود الى ما قاله ﷺ فى موضع آخر : « ان الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان الاسـلام لا يقر « الحتمية البيولوجية » أى الأثر اللازم لعيوب الخلقة على السلوك البشرى كمـا ينادى بها لمبروزو ، وكما سنتصدى لها فيما بعد [٧١] .

٢٤ ــ أما عملية وظائف الأعضاء فى داخل البدن ، فقد تختل نتيجة لمرض أو تقاعس أحد الأعضاء عن نشاطه أو افراطه فيه ، فلا شـك أن ذلك يؤثر على الناحية العصبية ، وبالتالى على الناحية النفسية وناحية السلوك ، والشريعة الاسلامية لا تنكر ذلك بل تؤيده ، فالجوع يؤدى فى الجسم الى تغيرات حيوية « بيولوجية » لها تأثير على النشاط الغريزى وبالتالى على السلوك ، ولذلك يقول ﷺ : « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فيضيقوا مجاريه بالجوع » ، ويقول ﷺ أيضا :

---

(٧٠) ولمـا سمع النبى صلى الله عليه وسـلم رجلا يقول لآخـر يا ابن السوداء ، معيرا له بسواده غضب وقال « لقد طف الكيل ، لقد طف الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى » .

(٧١) غير أنه ليس منكورا أن بعض العيوب البدنية التى تصل الى حد العاهة أو التشوه قد تدفع النفس الى تعويضها بانماء طاقة أخرى تحل محل الطاقة المفقودة أو العضو المعدوم ، وكثيرا ما تؤثر هذه الطاقة الجديدة فى سـلوك الفرد تأثيرا يصل بها الى قدر غير مألوف من الاتقـان أو النبوغ أو الجموح ، ولذلك يقال : كل ذى عاهة جبار .

« من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .

وكما تؤثر الناحية العضوية على الناحية النفسية فكذلك تؤثر الناحية النفسية على الناحية العضوية ، ومن هنا يقول ﷺ : « ... ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله » .

٢٥ — ومن المعروف أن الانسان يرث عن أصوله الكثير من الأوصاف البدنية التى قد يكون لها ارتباط بالاستعداد النفسى ، أى بالاستعداد للسلوك ، ولذلك يدور الكلام عادة حول حقيقة وراثة الانسان للسلوك ، أو بمعنى آخر حول ما اذا كان الانسان يرث عن أبويه أو أصوله الميل الاجرامى أو الاستعداد للاجرام ، وسنرى فيما بعد أن هنالك رأياً بأن الانسان يرث الاستعداد الاجرامى بالمولد . وهنالك الرأى الآخر بأن مثل هذا الاستعداد انما يكتسب بحكم البيئة ، لا بحكم الوراثة .

واذا رجعنا الى الشريعة الاسلامية نرى النبى ﷺ يقول : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ، ومقتضى ذلك أن سلوك الابن أو البنت منسوب الى الأب أو الأم أو الى الأصول بصفة عامة ، غير أننا لا نستطيع أن نقطع — بناء على هذا الحديث — بما اذا كان تشابه السلوك بين الفرع والأصل يرجع الى حكم الوراثة أو حكم البيئة ، فقد يعنى الحديث أن الابن يرث السلوك عن الأبوين أو الأصول طبقا لنظام الوراثة المعروف علميا ، وقد يعنى أن الطفل حينما يشب فى بيئة أبويه أو أصوله ينقل عنهما السلوك باعتبار هذه البيئة هى البيئة الأولى التى يتفاعل الطفل بها فى أول حياته .

ولما ولد عيسى عليه السلام ، أقبلت مريم على أهلها تحمله ، فقالوا لها « **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** »[٧٢] أى أنهم يتعجبون كيف يسوء سلوكها ولم يكن أبوها

---

(٧٢) مريم : ٢٨ .

أو أمها من قبل كذلك ، وبمعنى آخر يقررون ما هو مألوف من أن سوء السلوك ينقله الخلف عن السلف ، واذا كان ما يقرره هؤلاء ليس حكما يعتمد عليه ، الا أنه تعبير صادق لما تعارف الناس عليه فى ذلك الزمان ، غير أن ذلك لا يعنى — على أية حال — الا تشابه السلوك بين الخلف والسلف ، دون التطرق الى ما اذا كان هذا التشابه هو بعامل الوراثة أو عامل البيئة .

* * *

● **الخلاصـــة :**

٢٦ — يتضح من ذلك كله أن الشريعة الاسلامية قد تصدت منذ قرون طويلة لكل العوامل التى تقف وراء الجريمة ، سواء أكانت نفسية أو اجتماعية أو طبيعية ، ونظرت الى النفس البشرية باعتبارها موطنا لغرائز فطرية وزواجر مكتسبة ، وجعلتها على مراتب ثلاث هى النفس المطمئنة أى النفس المثالية ، والنفس اللوامة أى النفس الشعورية ، والنفس الأمارة بالسوء أى النفس الشهوانية ، وربطت بينها وبين العقل ، واستخلصت كيفية تكوين الارادة .

واذا كانت الشريعة الاسلامية لم تجعل من ذلك علماً مستقلا بذاته الا أنها لم تغفل مادته من حيث هى .

واذا كان فقهاء المسلمين قد وصلوا الى كشف ذلك عن غير طريق البحث التجريبى وطبقا للأسلوب العلمى المعروف حاليا ، فانهم قد اعتمدوا فى تحصيله على ما جاء فى القرآن والسنة وهما دعامتان تفوقان كل دعامة علمية أخرى ، فاذا قلنا ان أساس ما اكتشفوه هو الفلسفة ، فان ذلك لا يتفق فى الحقيقة مع الواقع ، لأن ما يعتمد على آراء البشر لا يتساوى مع ما يعتمد على شريعة الله ، لأن آراء البشر عرضة للخطأ والصواب ، أما شريعة الله فمنزهة عن كل خطأ .

* * *